

حروب الردة

لتفصيل الكلام فى حروب الردة مكان غير هذا المكان .

لأننا تناول منها فى هذا الكتاب ما يتصل بأعمال خالد وتقديم خصائصه ومزاياه . وتدع ما عدا ذلك لمكانه من الشروح والمطولات .

وقد رجعت حروب الردة - كجميع الثورات والأحداث الاجتماعية - إلى أسباب مختلفة ولم تنحصر فى سبب واحد، وربما كان من أسبابها ما خفى على المؤرخين ولا يزال خافيا علينا وحتى الآن، ولكننا نعتقد أن الأسباب الآتية كافية لتفسيرها وتفسير نصيب خالد منها، على القدر اللازم لفهمها وتصحيح دلالتها .

فمن أسباب حرب الردة تمرد القبائل القوية على قريش، وأقواها القبائل التى تنتمى إلى ربيعة دون مضر . فإنها كانت تتعصب لنسبها وتأنف أن تعلقها قريش فضل النبوة والرئاسة، وصرح بذلك طليحة النمرى حين لقى مسيلمة زعيم بنى حنيفة ومدعى النبوة فى اليمامة فقال: أشهد أنك كذاب . . لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من كذاب مضر . وكان مسيلمة هذا يقول: إنه أراد أن يأخذ نصف الأرض ويترك نصفها لقريش "ولكن قريشاً قوم لا بعد لون!"

ولم تكن المنافسة بين قبائل مضر أخف ولا أضعف من المنافسة بين مضر وربيعة، فإن المنافسة فى الأقربين أشد وأيقظ من المنافسة بين الأبعدين كما هو المعهود فى كل قبيل . فكانت ذبيان وعبس وبنو أسد تكره من سيادة القرشيين ما تكرهه القبائل البعيدة . وروى عن عينية بن حصن مثلما روى عن طليحة النمرى إذ قال يؤيد المتنبئ طليحة بن خويلد: "نبى من الحليفيين أحب إلينا من نبى من قريش" ويعنى بالحليفيين بنى أسد وبنى غطفان

وكانت قريش تقابل مثل هذه النفرة^(١) بمثلها فى أيام خصومتها للنبي

(١) النفرة: الأعراض والصدود.

وثورتها عليه. فكان صفوان بن أمية مشركا في وقعة حنين، ولكنه أنكر من أخيه أن يفرح بنصر هوازن وحلفائها، وصاح به وهزيمة المسلمين على أشدها: "أسكت فضن الله فاك"^(١)! أتبشرنى بظهور^(٢) الأعراب.. والله لأن يربنى^(٣) رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن"

ومن أسباب الردة ثروة البادية على الحاضرة. فما زال من دأب البادية في كل زمان أن تنقم على الحاضرة سلطانها ونعمتها، ولم يشذ عن هذه السنة إلا بضع قبائل فيما بين مكة والمدينة كانت تخشى من سطوة القبائل الكبرى ما ليست تخشاه من سطوة المدينتين، وكانت تحتكم في خصوماتها إلى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى، فتؤثر مودة الجوار بعد طول الخبرة وطول العشرة على بلاء الفتنة فيما بينها إذا زال سلطان مكة والمدينة، ولزم ببعض هذه القبائل الحيدة يترب ما يكون، وأسرع بعضها إلى تلبية الدعوة فحارب في صفوف المسلمين ومن أسباب الردة نجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة، فإن هذا النجاح أطمع بعض القادة من رؤساء العشائر في بلوغ مثل هذا المطلب الجليل..

فما هو إلا أن استقر الأمر لمحمد في الحجاز وما حوله حتى اشربت الأعناق للاقتداء به، وظن من ظن أنهم قادرون على ما قدر عليه، وأن المسألة كلها مسألة كهانة وأسجاع وقيادة وأتباع، وقصرت عقولهم عن إدراك سر القوة الأصلية التي هيأت لمحمد كل ذلك التوفيق العظيم، وهى أن دعوته مطلوبة لإصلاح الأخلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشة في العالم كله، وليست مجرد نهضة^(٤) تتهز لظهور رئيس مطاع وتحقيق مجد مرموق. فنجم^(٥) الدعوة في حياة النبي باليمن، ونجد، والبحرين، لمجاراة الدعوة

(١) فضن الله فاك: كسر أسنانك. (٢) ظهور الأعراب: انتصارهم.

(٣) يربنى: يكون في ربا، أى يملكنى ويحكمنى.

(٤) نهضة: فرصة. (٥) نجم الدعاء: ظهوروا.

بالحجاز، وجاءت وفاته عليه السلام إثر ذلك فجرأتهم على المجاهرة بالعصيان .

ومن الأسباب التي أثارت القبائل فريضة الزكاة التي فرضها لإسلام على كل مستطيع، فإنها أثارتهم لضعفهم بالمال، أنفتهم من الإتاوة، وخالفت ما ألفوه حتى ما أكاسرة الفرس قياصرة الروم، لأنهم كانوا يأخذون من هؤلاء أكثر مما يعطون، وكانت الإتاوات التي يرضخون عنها أقل من المنح التي توزع عليهم بين حين وحين، باسم الخلع أو الهبات .

بل كان منهم من ضاق ذرعا بالفرائض فأسقطها الدعاة عنهم جميعا، وأعفوهم من كل فريضة، ومنهم من أنف من السجود فقال لهم طليحة الأسدی: " أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم^(١)، فاذكروا الله قيامًا، فإن الرغبة فوق الصريح! "^(٢) .

ويلحق بهذا وأشباهه أن الدين الجديد لم ترسخ جذوره بعد في نفوس الأقصين من أعراب البادية، ولم تهجر طباعتهم بعد عادات الجاهلية في العبادة والمعيشة، وقد كان المسلمون أعلم بهم من أن يدهمهم داهم بالمفاجأة من قبلهم، لأنهم عرفوا طويتهم قبل ذلك من القرآن الكريم: " قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإسلام في قلوبكم "

وليس أقرب إلى المألوف من نكوص هؤلاء على أعقابهم بعد موت النبي وشيوع الفتنة والاضطراب عن هؤلاء على أعقابهم بعد موت النبي

(١) إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم: يريد تعفير الوجه بالسجود، أن الله لن يستفيد من ذلك فاذكروه وأنتم قائمون بلا سجود.

(٢) الرغبة فوق الصريح: مثل معناه قائمون أن الأمر غامض عليك وسوف يبدو لك والذي في (مجمع الأمثال) "الصريح تحت الرغبة، والصريح هو الخالص النقي - كاللبن مثلا - وتكون الرغبة على سطحه .

وشيوع الفتنة والاضطراب عن إيمانهم وشمائلهم، مع إغراء الدعاة وفرط الحنين إلى القديم وهو منهم جد قريب

وثمة سبب لا يغفل ولو لم تذكره التواريخ بالسند القاطع والنص الصريح: وهو الدسيسة المبتوثة من الدول الأجنبية.. كل منها بما يؤاثرها وبما هي قادرة عليه..

وهذا يفسر لنا أن النبوة ظهرت من العرب أولياء فارس، ولم تظهر من العرب أولياء الروم، وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبائل التخوم السورية، فهؤلاء يدينون بالمسيحية، فلم يظهر، بينهم مدع أو مدعية للنبوة، ولكنهم ناوشوا المسلمين على التخوم مناوشة الحرب والوقعة، أما التغليون على مقربة من فارس فلم يكن عليهم حرج من دولتهم التي تحميهم أن يحاربوا دين العرب الجديد بدين آخر، ولم يجدوا حرجا من عقيدتهم أن يسمعوا إلى المتبئيين والمتبئيات، لأن عقيدتهم هذه كانت مزيجا من المجوسية والوثنية ومسحة^(١) من المسيحية لا يرضاها أتباع كتاب. فلهذا ظهرت بينهم سجاح وسلكت في التبشير بدينها العجيب مسلكا لا يستريح العقل التي تفسيره بغير التفسير واحد، وهو أنها كانت تعمل لغرض سياسى وبإغراء دولة أجنبية، ولا تعمل لغرض دينى ولا بدافع من عندها وعند ذويها

فسجاح هذه كانت من بنى يربوع أقرب بطون بنى تميم إلى نفوذ فارس، ثم تزوجت فى أخوالها التغلبيين بالعراق، ثم انحدرت من ثم إلى أرض بنى تميم مبشرة بدين جديد بعد موت النبى عليه السلام، وانحدر معها جيش كثيف لا يستهان بأمره، فلما دعت قومها الأولين بنى يربوع إلى هذا الدين طلبوا إليها - على ما يظهر - أن تؤلف بطون بنى تميم جميعا إلى دينها قبل الزحف على الحجاز لمحاربة المسلمين، فلم يتفق تميم على رأى. وتركتهم إلى

(١) مسحة. تقول (بها مسحة من جمال) أى شىء من جمال.

اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب ينحفز كذلك للخروج على الإسلام، ولم يكن أوفق لهما بهذه المثابة من التعاهد على غرض واحد هو: الزحف على الحجاز، ولكنها رجعت إلى قومها وهى تقول: "إنها وجدته على الحق فتزوجته" وإنه سيؤدى لها نصف غلات اليمامة، وقد استنجرته شطر هذه النصف قبل مرجعها إلى بلادها..

فلماذا خالفها بنو تميم؟ ولماذا خالفها مسيلمة؟ ولماذا انحدرت ثم عادت إن يعطيها خليفة المسلمين، ويجرد لحربه جيشا قيل إن عدته أربعون ألفا، وقيل بل ستون، ولم يقل عشرين ألفا فى تقدير أحد من المؤرخين؟..

كل أولئك لغز سخييف لا يقبله العقل إلا على وجه واحد، وهو أنها كانت داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة، ومن ثم أصابت ما أصابت من الإخفاق أو النجاح.

ويعزز ذلك أنها لقيت فى رحلتها عملاء فارس جميعا عن أبناء البوادى العراقية والنجدية، وأنها عملت حيث كان الأكاسرة حريصين على تجديد نفوذهم القديم..

قال ابن الكلبي: "كانت غير كسرى تبذرق - أى تحرس - من المدائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالخيرة، والنعمان يبذرقها من بنى ربيعة حتى تدفع إلى هودة بن على الحنفى باليمامة، فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بنى حنيفة، وتجعل لهم جعالة^(١)، فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن" وعلى هذا تكون مهمة سجاح قد وضحت على هذه الصورة التى لا لغز فيها ولا تناقض بين أجزائها.

ويكون بنو تميم وبنو حنيفة قد عاملوها المعاملة الواجبة لم يعتز بصولة الأكاسرة ويخلف المناذرة فى وقت واحد.

(١) الجعالة: ما يجعل على العمل من أجر أو رشوة.

فقد هدمت وقعة ذى قار - التي مر ذكرها بأول هذا الكتاب - (١) هبة الأكاصرة في الجزيرة العربية

وساء ظن الأكاصرة بالناذرة - ملوك الحيرة - الذين كانوا صنائع (٢) فارس، وكانت فارس تعول عليهم في إخضاع البادية القريبة والبعيدة، فنكلوا بهم وعصفوا بدولتهم قبيل ذلك بقليل. فأرسل الأكاصرة أميرة تغلبية لتخلف المناذرة في هذه المهمة القديمة.

وكان اختيارها من بنى أدنى شىء إلى المعقول والمنظور، لأنهم أعداء بنى بكر الذين تصدوا لحرب الفرس وهزموهم في وقعة ذى قار.

ثم كان تردد بنى تميم وبنى حنيفة معاملتها أدنى شىء كذلك إلى المعقول والمنظور، لأنهم أصدقاء المناذرة من زمن قديم، فلا هم راضون بهوانهم ولا هم قادرون على إغضاب فارس وغاية ما في وسعهم أن يصرفوا سجاج راضية ويقنعونها بأن الثورة على الإسلام حاصلة، ويكون عملهم جميعا معقولا على هذا التفسير حيث يعوزه الفهم والضحوح على كل تفسير سواه.

بل نحن نخاطر هذا في أخلاذنا (٣) فنفهم كيف اشتد التغلبيون في حرب المسلمين، وكيف اشتد المسلمون في حرب التغلبيين يوم اشتبكت جيوش الإسلام وجيوش الأكاصرة على أثر حروب الردة، فهي لها شدة لها أوائلها (٤)، ونهاية جاءت بعد بداية وكانت رحلة سجاج إلى الجزيرة العربية هي أولى الطلائع في حرب الأكاصرة والإسلام.

من جملة هذه الأسباب يجوز لنا أن نقول: إن المدينة ومكة وجيرتهما كانت تقف وحدها في وجه البادية العربية بأسرها، ومن وراء البادية دول

(١) أرجع إلى ص ١٠ وهامشها. (٢) صنائع: عملاء.

(٣) أخلاذنا: الأخلاذ جمع خلد (بفتحتين) وهو البال والقلب.

(٤) لها أوائلها: يعنى: لها مقدماتها وأسبابها.

كبيرة تنصرها ولا تنصر المدينتين في هذه المعركة وقد كانت حروب الردة طائفا^(١) من الشر لاشك فيه .

ولكنها ولا ريب لم تكن شرا محضاً خلواً من جانب المصلحة والفائدة . لأن هذه الحروب وحدث عناصر المدينتين وهما وشيكتان أن تفترقا كل مفترق ، فاجتمعت منهما قوة تكافئ كل قوة من قوة في البادية على انفراد ، وتيسر لهما من ثم أن تأخذا من البادية قوة تغل قوى الدول الواقفة لهما بمرصد قريب . .

ولولا حروب الردة لكان الخلاف بين المهاجرين والأنصار خليفاً أن يتشعب ويستفحل ، وكان الأنصار فيما بينهم مختلفين شيعتين كبيرتين . . ثم شيعا صغارا في كل من الشيعتين ، وكذلك كان المهاجرون من هاشميين وأمويين ومن سائر بطون قريش ، فإن بنى هاشم على انفرادهم لم يجتمعوا بينهم إلى كلمة ، ولم يكن لهم مطمع في الوفاق وبين بطون قريش الأخرى ، ودع عنك الوفاق بين طوائف المسلمين أجمعين .

فلما تحفزت البادية للوثوب على المدينة أحس المسلمون جميعاً أنهم فريق واحد ، مهدد بخطر واحد ، فاتفقوا بوحى البداة التي لا موضع فيها لتعمل التفكير وحيلة الحض والتحريض ، ولبثوا متفقين ما كانوا بحاجة إلى الوفاق ، وما كان الشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الأخطار . .

وغنى عن القول أن خالد بن الوليد كان في وسط هذه الحومة بكل داع من دواعيه النفسية والعقلية . بداعى العقيدة الإسلامية ، وداعى العصبية القرشية ، وداعى النشأة الحضرية ، وداعى القيادة العسكرية التي قدمته إلى طليعة المجاهدين في هذا الميدان .

(١) طائفاً من الشر: الطائف: ما كان كالحَيال يلك بالشخص ، والمراد هنا أن حروب الردة

كانت شراً أطاف بهم .

فشهد حروب الردة من أوائلها إلى نهاياتها، وقسمت له الحصص الكبرى في أهم وقائعها وأعصب أوقاتها، ومنها وقعة واحدة ترجع بها جميعا وتعد من حروب الإسلام الحاسمة في صدر تاريخه، وهى وقعة اليمامة التى انتصر فيها بعد هزيمة قائدتين وتنقسم أعمال خالد فى حروب الردة إلى قسمين: أحدهما الذى اشترك فيه من كبار الصحابة بقيادة الخليفة فى المدينة وما جاورها، والآخر الذى استقل به أو استقل على الأصح بناحيته العسكرية هو أعظم عملية فى هذه الحروب.

توفى النبى عليه السلام وجيش أسامة بن زيد فى الجرف من أرياض^(١) المدينة، والفتنة على مقربة منها تتطلع براءوسها. فعاد فريق منه إلى المدينة وأشار بعض الصحابة على الخليفة أن يرجئ مسيرته ويستبقيه عنده فترة من الزمن ريثما أن يخلف فى عقر داره خلال تلك الغاشية^(٢). أبى أشد الإباء أن يخلف وصية للنبي أوصى بها من وفاته، وقال قولته المأثورة: "والله لا أحل عقده عقدها رسول الله، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهرن جيش أسامة" ونادى فى المسلمين: ليتم بعث أسامة! ألا لا يقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف.

وسار الجيش إلى وجهته كما أراد.

فخلت المدينة من الجند إلا بضع مئات من رجال المهاجرين والأنصار. ودرى أقرب المرتدين إليها بحالها من العزلة وقلة الحامية فزحفوا عليها وظنوا أنهم إذا هددوها وهى عزلاء وتوسلوا بالمفاوضة والوساطة فى الوقت نفسه رجع الخليفة عن عناده وقيل منهم ما ساوموه عليه، وهو إقامة الفرائض كلها، والإعفاء من الزكاة.. أو من الجزية كما سموها!

(١) الجرف: (بضم الجيم) موضوع قرب المدينة، وأرياض المدينة: ما حولها.

(٢) الغاشية: النازلة من خير أو شر أو مكروه.

زحفت مئات من عبس وذبيان وقزاة على المدينة، وتركوا شطرا من جموعهم فى الربذة حيث تلقى طرق كثيرة على مسافة حسا وذى القصة وهى أقرب محلة إليها. ثم أوفدوا سفراءهم ينزلون بالناس فى بيوتهم ويتوسلون بهم إلى الخليفة أن يقبل منهم ما عرضوا عليه. فأبى إباءه الذى لا يتثنى وقال: لو منعونى عناقا لجاهدتهم عليه^(١).

فقفلت الوفود إلى جماعتها، وعلم الخليفة بقولها، وأخذ التأهب للأمر بحذب العمل وحزم التدبير والحيلة بعد حزم الإيمان. فلم يدع شيئا قط يستعد به للخطر المنتظر إلا أعدده فى أوانه، وعلى الوجه الأمثل فى تلك الأحوال..

فأقام كبار الصحابة على الأبواب، جمع فى المسجد من استطاع جمعه من المجاهدين، وأرسل العيون على الطرقات من كل سبيل، فما هو أن جاءوه بنبا القوم ومواضع جماعاتهم المختلفة حتى خرج مع الليل ليضربهم من حيث لا يتوقعون قدومه، ودهم من كان منهم بذى القصة فذعروا لهذه البعثة التى لم تكن لهم على بال، ولاذوا بالفرار حتى لحقوا بأصحابهم فى ذى حسا فصمدوا هناك للمقاومة، وقيل إنهم تحيلوا^(٢) على إبل المسلمين التى لم تروض للقتال فضربوها بالأنحاء^(٣) المفتوحة فى وجوهها فنفرت وولت مجفلة من حيث أتت. فأطمعهم ذلك فى الهجوم على المدينة، وظنوا أن أهلها لن يفارقوها يومهم على الأقل بعد هذه الهزيمة..

إلا أن الخليفة لم ينتظرهم معتمما بالمدينة كما انتظروا. بل خرج بمن فى هزيع من الليل على تعبئة كاملة، وهبط عليهم عند طلوع الصبح وهم

(١) العناق: (بفتح العين) الأنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام السنة.

(٢) تحيلوا: استعملوا الحيلة.

(٣) الأنحاء: جمع (نحى) بكسر النون، وهو زق السمن، ويقال أن الإبل لا تنفر من شيء كما تنفر من الأنحاء.

على غير أهبة، فلم يلبثوا قليلا حتى تفرقوا وارتدوا، ولم تقم لهم بعدها قائمة في هذه المحاولة الفاشلة. لأن جيش أسامة عاد من وجهته قبل أن يسعفهم مدد نافع، فيئسوا أن يأخذوا المدينة عنوة أو غرة بعد ما أعياهم أخذها وهي قليلة الحامية مفتوحة الطريق.

تلك كانت هجمة المرتدين الأولى على معقل الإسلام.. ظفر فيها المسلمون لأنهم اعتصموا بحزم الإيمان وحزم التدبير وحزم الوفاق، وانخذل فيها المتردون لأنهم كانوا على نصيب ضئيل من هذه العدد الثلاث، فخاتنهم عزيمة الدين والرأى وعزيمة الكلمة الواحدة، ولعلمهم لو شاءوا أن يتحدوا كلمة وفعلا لفاتهم طلاب ذلك، لقلة الكلاء^(١) والماء الذى يكفيهم مجتمعين. فكان تفرقهم مما أعان المسلمين عليهم، وعوضهم عن قلة الجند رجحانا يقابلون به الكثرة منحلة الوثاق

ومن عجائب الخليفة الصديق أنه كان يعتصم بالإيمان حتى يقال لم يدع مزيدا للحيلة والتدبير، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال لم يدع مزيدا للإيمان..

ففى هذه الفترة التى شغل فيها أولئك المرتدين بالهجوم والدفاع كانت رسله إلى كل مكان تستنفر^(٢) القبائل الموالية للنجد، وتمشى بالوقية والتفرقة بين القبائل المعادية أو المتربصة للعداء، وتأتيه بالأخبار من كل صوب فيعمل وهو بصير، ويعملون وهم متخبطون مضللون..

فلم تنقض هجمة فزارة وعبس وذبيان حتى استتم له جيش كبير من أبناء القبائل الموالية فى جوار المدينة ومكة، ومعهم جيش أسامة وعدته بضعة آلاف من المدرين على القتال.

ومضى رسوله "عدى بن حاتم الطائى" إلى قومه بنى طليئ وهم

(١) الكلاء: العشب. (٢) تستنفر القبائل: تطلب منهم النفار أب أن يهبوا للقتال.

مترددون: فريق يعصى الخليفة ويلحق بالمتنبئ الأسدى طليحة بن خويلد ومعهم فلول المرتدين عن المدينة، فريق يحجم عن العصيان ويؤثر البقاء والانتظار. فأرهبهم من مغبة العصيان^(١)، وساعده على إرهابهم مصير عبس وذبيان. وأنذرهم ليهبطن عليهم جيش لا قبل لهم بدفعه من تلك الإمداد التى تندفق على المدينة، أو يثوبوا^(٢) إلى الإسلام وإيتاء الزكاة. فأصنعوا إليه، وسألوه المهلة حتى يستخرجوا من لحق بطليحة من إخوانهم لثلا يقتلهم وهم بين يديه، ووعدوه أن يدخلوا بهم جمعيا فى زمرة جيش المسلمين.

إلى هنا انتهت المرحلة الأولى التى اشترك فيها المسلمون جميعا بقيادة الخليفة المرتدين عن المدينة، وكان شأن خالد فيها شأن غيره من أبطال المجاهدين . .

وآن تبدأ المرحلة الثانية وهى المرحلة التى توزع فيها الأعمال بين القادة فى شتى الميادين، بعد أن تمت العدة وتوافدت الأمداد من مختلف القبائل، واستراح جيش أسامة، وهدأت سورة القيظ^(٣) وبدأ الخريف، وأصبح من المسور للخليفة أن يوجه البعوث إلى المتنبئين فى مواطنهم، ليعجل كل منهم عن مراده قبل استفحال خطبه.

ففى أول هذه المرحلة نرى خالدا "بذى القصة" حيث عقد له الخليفة لواء القيادة على جيش تتجاوز عدته أربعة آلاف مقاتل، أكثرهم من أبناء القبائل الموالية وأقلهم من المهاجرين والأنصار. ووجهته إلى "بزاخة" من أرض بنى أسد حيث اجتمع بنو أسد وقيس وحلفاؤهم إلى المتنبئ القائم بأمر الردة هناك طليحة بن خويلد.

وربما كان الصحيح أن خالدا إنما استقل فى أول هذه المرحلة بعمل القائد العسكرى فى تنفيذ خطة مرسومة بتفصيلاتها. إذ كانت هذه الخطة متفقا عليها

(١) مغبة: عاقبة. (٢) يثوبوا: يرجعوا. (٣) سورة القيظ: شدة الحرارو.

بينه وبين الخليفة، وكان الخليفة اليقظان - يأمره بما يصطنع خطوة بعد خطوة، وينبئه إلى مواقف القبائل ومواطن الخطر منها على درجاته، ويصحبه إلى بداية طريقه.

قال الخليفة وهو يودع الجيش: "أيها الناس: سيروا على اسم الله وبركته، فأمركم خالد بن الوليد إلى أن ألقاكم. فإنى خارج فيمن معى إلى ناحية خيبر حتى ألقىكم".

ثم خلا بخالد وأسر إليه امرأ ثم قال: "... عليك بتقوى الله وإيثاره على سواه، والجهاد فى سبيله، والرفق بمن معك من رعيتك، فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار، فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم. فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا من الحملة^(١) فإنى لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد^(٢)، وسر بالأدلاء، وقدم أمامك الطلائع تترد^(٣) لك المنازل، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة، وأحرص على الموت ثوب لك الحياة، ولا تقاتل بجروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات^(٤) فإن فى العرب غرة، وأقلل من الكلام، وأقبل من الناس علانيتهم وكنتهم إلى الله فى سريرتهم^(٥)، وإذا أتيت داراً فأقحم^(٦). فإن سمعت أذانا أو رأيت مصليا فأمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا الصدقة، فإن لم تسمع، أذانا ولم تر مصليا شن الغارة^(٧)، فاقتل

(١) الحملة: حمل عليه فى الحرب حملة أى تر عليه كرة.

(٢) استظهر بالزاد، استعن به. (٣) تترد: الفعل مجزوم فى جواب الأسر وأصله (ترتاد).

(٤) البيات: المفاجأة فى الليل.

(٥) كلهم: (بكسر الكاف): فعل أمر من (وكل) بمعنى (فوض).

(٦) فاقحم: أدن - واقترب.

(٧) شن الغارة: لعلها (فشن الغارة الخ)، والرواية فى تاريخ الطبرى "إذا غشيتهم داراً فسمعتهم فيها أذانا للصلاة فأسكوا عن أهلها حتى تسألهم ما الذى نقموا، وأن لم تسمعوا أذانا فشنوا الغارة فاقتلوا وحرقوا".

وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس . . . وإذا لقيت أسدًا وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة^(١) فيميل مع من تكون له الغلبة، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة، فاستعن بالله على قتالهم، فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم، فإن كفاك الله الضاحية^(٢) فامض إلى أهل اليمامة سر على بركة الله "

ولم يكن الخليفة على نية السير إلى خيبر كما أعلن أمام الناس، ولكنه لم يشأ أن يعلن سير الجيش إلى بزاجة نصًا لمقاصد متعددة: منها أن يخيف بطون طيئ حين يقصد إليهم جيش خالد بقضه وقضيضه فيجهز على بقية التردد التي تهجس في صدورهم، ومنها أن يقنع طليحة بإرسال من عنده من طيئ لنجدة إخوانهم والدفاع عن بلادهم، ومنها أن يدهم طليحة على غرة وهو يظن أن الجيش متجه إلى غير بزاجة ومنصرف عنها إلى حين، ومنها أن يلزم أهل خيبر أماكنهم فلا يشتركوا في قتال . .

وقد عمل خالد بهذه الخطة فمضى فى طريق بزاجة ثم عرج إلى اليسار قبل منتصف الطريق كأنه يريد الحملة على ديار طيئ، هناك وافاه فوق الألف من مقاتلة البطون الطائية ممن تخلى عن طليحة أو كان نية اللحاق به بعد قليل .

وقبل أن يستوى خالد فى طريقه إلى بزاجة جاءه أناس من الطائيين فعرضوا عليه أن يكفوه حرب قيس، ويعفيهم من حرب بنى أسد لأنهم حلفاؤهم منذ الجاهلية. ولم يكن عدى بن حاتم على رأى قومه فقال لخالد: لو ترك هذا الدين أسرتى، الأذنى فالأذنى من قومى لجهادتهم عليه. أفأنا

(١) الدبرة: (بسكون الباء أو فتحها): تكون بمعنى الهزيمة إذ قلت (جعل الله عليهم الدبرة) بمعنى الظاهرة إذا قلت (جعل الله لهم الدبرة).

(٢) الضاحية: الناحية الظاهرة خارج البلد، والمراد: إذا انتهت من قتال المرتدين من أهل الضواحي فاتجه إلى اليمامة.

إمتنع عن جهاد بنى أسد لحلفهم؟ .. فلم يشأ خالد أ، يكره أناساً على حرب من يسالمونهم ولا يتحمسون في قتالهم، وقال لعدى: لا تخالف قومك، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط، والله ما قيس بأوهن الشوكتين^(١). امضوا إلى أى القبيلتين أحببتم".

وأتم تعبئة للقتال وهو على الطريق، فجعل القبائل على ميمته والأنصار والمهاجرين على مسيرته، وصمد هو فى القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء..

أما طليحة فالظاهر أنه كان أحذر من أن يؤخذ على غرة، فإنه قد رصد العيون على فجاج الصحراء فعلم بمقدم المسلمين قبل وصولهم إلى بزاخة، وأعد العدة لكلتا الحالتين من غلبه وفرار، فعزل أكثر النساء فى مكان أمين لثلا يقعن فى السبنى إذا دارت الدائرة عليه، وأقام حوله أربعين فارساً من اشد فتیان بنى أسد ليدرأوا الهجمة عنه، كأنه كان يعلم أسلوب خالد فى قتاله.. إذ كان وكده^(٢) قبل كل وكد أن ينحى بالضربة المصمية^(٣) على رئيس القوم فيفت فى أعضاء القوم جميعاً بقتله أو إكراهه على الفرار. ولم يكن طليحة جبائلاً ينتحى عن الطعن والضرب وراء غيره، بل كان مشهوراً بالشجاعة معروفًا عنه أنه أقسم إلى الحذر والحيلة منه إلى المجازفة والحماسة، وكان فى هذه الخصلة نقيض نده الذى يصاوله وينازل بالسلاح والأخلاق، فكان خالد أقرب إلى المجازفة والحماسة منه إلى الحذر والحيلة.

ولقد كانت لجيش طليحة مزيتان، هما الكثرة والراحة.. فقد كان جيشه يربو على جيش المسلمين ألف مقاتل أو زيادة، مع وفرة السلاح

(١) بأوهن الشوكتين: أوهن: أضعف، والشوكة: القوة والبأس.

(٢) وكده: الوكد (بفتح الواو): القصد والمراد، وبضعها: السعى والإجهاد.

(٣) المصمية: التى تدع المضرب يقع فتيلاً بين يدى ضاربه.

والركائب، وكان مستريحًا في دياره على خلاف جيش المسلمين الذي كان عليه أن يلقاه بعد مسير مئات من الأميال في الأودية والجبال

ولهذا أوشك أن يفوز بيومه لولا عزمه من عزمات القيادة التي تأتي في إبانها^(١) وتدور برحى الحرب من طرف إلى طرف في ساعات معدودات.

فلما التحم الجيشان ثبت طليحة وأصحابه ثبات المستميت، وكروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا المينة، ولحقت بها الميسرة، وانقضت هنيهة خيل فيها إلى المسلمين أنهم منكسرون لا محالة، وجاء بنى طيئ إلى خالد ينصح له أن يتراجع يومه ليعتصم بجبال طيئ، ويستدرج المرتدين إليها. فأنكر عليه نصحته وزجره قائلاً: لا أعتصم بغير الله!

ثم عول على الكرة في كبة الجمع^(٢) ليبلغ النصر أو يموت دونه. فأرسل فريه مقاتلاً على قدميه ليملك الحرمه حيث يشاء، ويبعث القدوة في قلوب صحبه، ونادى بالأنصار كأنه ذكر موقف النبي يوم حنين: يا أنصار الله.. فلبوه مندفعين إليه، وثاب أبناء القبائل إلى مواضعهم، فاستحر القتل^(٣) "دثار الكهانة"^(٤) يوهمهم أنه يلتقى الوحي أو ينتظر المدد من السماء.

وقد كان أتباعه يحبون أن يؤمنوا به مجاملة له ومرضاة لكبرياء القبيلة في أنفسهم، فلما جد الجد أحبوا أن يروا لهذا الإيمان علامة، وسأله زعيم فزارة عيينة بن حصن وهو من أعز أنصاره وألد أعداء المسلمين: هل جاءك جبريل؟ لا.. ثم رجع له مستعجلاً وحتى السماء صائحا به وقد نسى غضبه أنه يخاطب زعمه نبيا من الأنبياء: لا أبالك، أجاك صاحبك؟ قال: لا..

(١) في أبائها، في وقتها المناسب. (٢) الكعبة: الزحمة.

(٣) استحر القتل: صار حاراً شديداً.

(٤) دثار الكهانة: الدائر: الغطاء، أى ليس الكهان.

فصاح به: حتى متى؟ قد والله بلغ منا فلما عاوده الثالثة خجل أن يجيبه
جوابه الأول وقال له: نعم جاءنى وأوحى إلى "أن لك رحى كرحاه، وحديثاً
لا ننسأه.."^(١) فسخر منه عيينة وقال: "نعم.. هو حديث لا ننسأه.."،
ونادى فى قومه وهو مؤمن بهزيمة طليحة وإدبار أمره: انصرفوا يا بنى
فزارة.. إنه لكذاب. وجعل طليحة يسألهم من حيرته، ما يهزمكم؟..
فأجابه أحدهم: أنا أحدثك ما يهزمنا، إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن
يموت صاحبه قبله، وإنا لنلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه".

وأدرك طليحة حذره^(٢). وكان قد أعد لهذا الحذر عدته، فركب فرسه
وأردف امرأته النوار على راحلة^(٣) ورائه، ونجا بها وهو ينادى أتباعه: "من
استطاع أن يفعل هكذا فليفعل". وما زال فى فراره حتى لحق بالشام.

وتعقب خالد فلو المرتدين ومن مالأهم^(٤) من قبائل هوازن وسليم حتى
لحق فى "ظفر" حيث أحاطوا بسلمى أم زمل، وهى كأمها من قبلها مضرب
المثل فى العزة والمنعة. كان يقال عن أمها: "أعز من أم قرقة"^(٥) لأنها تعلق
فى بيتها خمسين وسيفا كل سيف منها لرجل من ذويها، وقد سببت هى فى
عهد النبى عليه السلام فأعتقنها السيدة عائشة رضى الله عنها. فذهبت إلى
قومها مغضبة لتلك العزة التى انتهت بها عناد قومها إلى الأسر والخدمة،
واستشارت حمية الرجال بهذه الغضبة التى تثير الطيعة البدوية ولو لم تجتمع

(١) الرحى: أداة التى يطحن بها، وكان طليحة يستخدم فى القتال وحى، بترول فيما يقول
من قرآنه المزعوم "أمرت أن تصنعوا وحى، ذات عرى، يرمى الله بهذا من رمى، يهوى
عليها من هوى".

(٢) الحذر: (بكر الحاء) الاستعداد والتأهب. (٣) الراحلة: الناقة.

(٤) مالأهم: حالقهم ووقف فى صفهم.

(٥) أم قرقة: جاء فى مجمع الأمثال (هى امرأة فزارية، كانت تحت مالك بن حذيفة بن بدر،
وكان يعلق فى بينهما خمسون سيفا لخمسين رجلا كلهم لها معجرب).

إليها بواعث أخرى للغضب والثورة. فادر بين خالد وبين جيشها أحر قتال، ووقعت هي على جمل مشهور تضم النخوة فى قلوب جندها، وترد الشجاعة إلى من أدبر للفرار، ومضى اليوم وهي تكافح ومن حولها زعماء جيشها يكافحون. فجعل خالد مائة من الإبل لمن يصيب الجمل. . وأرسل نخبة من فرسانه عليه فعقروه^(١)، وقيل إنهم لم يصلوا إليه حتى قتل من دونه مائة رجل من حماتها المستيسين.

وقد تفرقت سرايا خالد فى أثر المنهزمين تضربهم وتجمع الأسلاب والغنائم وتدعو إلى الإسلام.

فلم تمض أيام حتى كان قد فرغ من مهمتيه الأولين: وهما الإنذار والتغلب على الفتنة، وبقيت مهمته الأخيرة وهي القصاص والتأديب، ولعلها كانت أزم وأحزم من قمع الفتنة وتمزيق الجيوش. لأن المرتدين كانوا قد أسرفوا فى التتكيل بالمسلمين الذين أصابوهم بينهم، ولم يتورعوا عن مثله من المثالات^(٢) التى يتورع عنها المقاتل الكريم، وأصابوا أولئك العزل المنفردين فى غير ساحة حرب وبغير نذير من قتال. فكانت أوامر الخليفة، إلى خالد صريحة ألا يبنى فى عقاب المعتدين^(٣) "ولا يظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتله ونكل به غيره"^(٤) ولم يكن خالد فى مواقف الصرامة والبطش بحاجة إلى توكيد وتشديد، فلم يقبل من المرتدين إلا أن يأتوه "بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على المسلمين". ومثل بهم فأحرقهم بالنيران، ورضخهم بالحجارة^(٥)، ورمى بهم من الجبال كفعلمهم بأولئك الأبرياء الغافلين عن عدوانهم الذميم. وقاد رؤساءهم فى جوامع الحديد إلى الخليفة ليصنع بهم من يشاء.

(١) عقروه: نحروه.

(٢) مثله: من (مثل به) أى نكل به يجده أنفه أو قطع أذنه أو غيرهما من أعضاء الجسم.

(٣) بنى: مضارع (بنى) أى تراخى. (٤) نكل به غيره: جعل منه عبرة قوطة لغيره.

(٥) رضخهم بالحجارة: رضخه: دقه بحجر وكسره.

وذلك درس لاشك أنه عنيف مخيف، ولكن لاشك أنه عادل في شرعة الحرب والسلام، وأنه لازم كل اللزوم في أحوال كتلك الأحوال.

وأية كانت المثالات بالمرتدين فهي على التحقيق لا تتجاوز المثالات التي تؤمر بها "حملات التأديب" في عصرنا هذا لمعاقبة أناس لم يفترقوا فعالهم بجريرة الخروج على عقيدة أو شريعة، ولا بتهديد "الدولة" في كيانها وهي أحوج ما تكون إلى الأمان والضمان..

ومع هذا وجد من كبار المسلمين من لام خالدًا على الإمعان في تأديبه على النحو الذي نحاه. فقال عمر بن الخطاب للخليفة منكرًا إحراق الناس: بعثت رجالا يعذب بعذاب الله؟ انزعه!.

فلم يستمع إليه الخليفة لأنه كان حنقه على المرتدين لا يستعظم عليهم ضربًا من ضروب العقاب.

ومهما يكن من مجازاة^(١) هذا العقاب لطبع خالد، فهذه البعثة بين بعثاته جميعًا هي بعثة التنفيذ المحض الذي لا يشوبه نصيب من الاستقلال، اللهم إلا استقلال القائد الكفء بحسن القيام على ما وكل إليه..

ومما لا غنى عنه قبل الانتقال إلى أعمال خالد المستقلة في بقية حياته أن تتحرى نصيبها من إطاعة الأوامر ونصيبتها من الإقدام على العمل غير مأمور به ولا محمود عليه.

فيجوز لقائل في هذا الصدد أن يقول إن الخليفة لم يرسم لخالد خطة القتال والمداورة في بعثة بزاخة، وإنما أفضى خالد بهذه الخطة إلى الخليفة فأقرها ووافق عليها.

ذاك جائر غير ضعيف الجواز، ولكننا على هذا نرجح أن الخليفة هو صاحب الخطة من ألفها إلى يائها، وأن نصيب خالد فيها هو نصيب الإقرار

(١) أى من مشابهته لطبعه وملاءمته له، وكان خالد يتزع إلى الصرامة كما سبق القول.

والموافقة، ويميل بنا إلى هذا الترجيح أن نصائح الخليفة في بدء البعثة قد شملت الصغائر والكبائر، وتناولت تفصيل الحركة كما تناولت تفصيل الصحيح عن موقف المرتدين في كل قبيلة وكل ميدان، وأن الخطة قامت على التورية^(١) والسبق بالهجوم، وكلاهما مما تعلمه الخليفة الأول بعد طول الصحبة من النبي عليه السلام، إذ كان مأثورا عنه أنه كان إذا قصد وجهة ورى بغيرها، وأنه كان لا ينتظر الهجوم بل يسبق المهاجمين إليه، وقد جرى الخليفة على ذلك في دفاعه عن المدينة قبل مسير البعوث وعقد الألوية للقواد.

كذلك تواترت بعض الأقوال بمسير خالد إلى بنى تميم - بعد معركة البزاحة - قبل أن يأتيه أمر الخليفة بالهجوم. قبل إن الأنصار أنكروا عليه المسير إلى بنى تميم وقالوا له: " ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إنما عهده إن نحن فرغنا من البزاحة واستبرأنا بلاد القوم"^(٢) أن نقيم حتى يكتب إلينا" فقال لهم خالد: " إن يكن عهد إليكم هذا فقد عهد إلى أن مضى. وأنا الأمير وإلى تنتهى الأخبار، ولو أنه لم يأتني كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة إن أعلمته بها فاتنتى لم أعلمه حتى أنتهزها".

بل قيل أكثر من ذلك إنه أغار على اليمامة قبل أن يأتيه الأمر من الخليفة بالإغارة عليها. وهى أهول حروب الردة، بل لعلها أهول من معظم حروب الفرس والروم.

فزعم قول أنه قال لصحبه بالبطح^(٣): والله لا أنتهى حتى أناطح مسيلمة. فأبى الأنصار وقالوا: هذا رأى لم يأمرك به أبو بكر، فارجع إلى المدينة. فأصر على رأيه وقال: لا والله. حتى أناطح مسيلمة. فرجعت

(١) التورية: التعمية والإيهام، وفعله (ورى) بتشديد الراء المفتوحة.

(٢) استرأنا بلاد القوم: طهرناها من المرتدين.

(٣) البطح: منزل لبني يربوع حيث لقي خالد مالك بن نوبرة.

الأنصار فسارت ليلة ثم قالوا: والله لن نصر أصحابنا لقد ندمنا، ولن هزموا
لقد خذلناهم، فرجعوا إليه ومضى بهم إلى اليمامة.

والذى لا نزاع فيه أن الخليفة لم يبعث أحدا غير خالد إلى بنى تميم،
ولو بعث غيره أن يقال إنه سار إليهم غير مأمور، ولكنه قال عند مسير جيشه
من ذى القصة: "إذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالطباح إن أقام له".

أما اليمامة فقد بعث إليها الخليفة عكرمة بن أبي جهل، ثم رأى حاجته
إلى المدد فوجه فى أثره شرحبيل بن حسنة، وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفردا
بالهجمة على اليمامة، ثم بدا لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده فهجم على
مسيلمة قبل أن يوافيه المدد، فنكب نكبة شديدة. وتلقى الخليفة نبأ هذه النكبة
فكتب إنى شرحبيل يأمره بالتوقف حتى يأتيه أمره، ولم يفعل أحد إن الخليفة
وجه قائدا غير خالد لنجدة شرحبيل، ولا كان معقولا أن يكتفى بشرحبيل
بعد هزيمة عكرمة وقد كان كلاهما عنده فى حاجة إلى التعزيز والإمداد.

وقد تقدم أن الخليفة قد بصر خالدا بشأن اليمامة قبل خروجه إلى
البرازحة.. وليس ثمة من داع إلى الشك فى نسبة ذلك المقال إليه، ولا إلى
الشك بعد هذا جميعه فى تولية خالد قيادة الجيش الذى سار إلى اليمامة..

ومن المتواتر جداً أن خالداً لقي الخليفة بعد مسيرة إلى تميم وقبل مسيره
إلى بنى حنيفة. لأنه استدعى لسؤاله عن مقتل مالك بن نويرة وزواجه من
امراته ليلى. فهو قد توجه إلى اليمامة مآذونا بعد وقعة البرازحة وبعد وقعة بنى
تميم وعدا هذا كله يكاد يستحيل على العقل أن يقبل أن خالدا قد تولى حربا
كحرب اليمامة اشترك فيها أعظم الصحابة واستهدف المقاتلون فيها لأكبر
الأهوال دون أن يندب لذلك بأمر صريح..

وغاية ما نفهمه الآن من ورود ذكر اليمامة عند عقد الألوية ذى القصة
أن الخليفة عرف خطرهما فأراد أن يجمع لها أكبر قوة من جيوشه فوجه إليهم
عكرمة أولا ثم وجه شرحبيل بعد لتلاقيا معا، ويكون خالد قد فرغ فى خلال

ذلك من أمر بنى أسد فيدرك سابقه معزرا لهم إن تعذر عليهم أن يقهروا بنى حنيف قبل قدومه، وهى خطة ثلاث ما عرف عن خطط الصديق من جرأة وحيطة وسرعة، ولا يمنع هذا أن الخليفة أمر خالد أن يرجع إليه بعد كل مرحلة من مراحل هذه البعثة لعله قد استجد شىء فى غيابه.

وفحوى الأقوال الكثيرة التى تنفق بالبداية على هذا النسق أن خالد قد تولى التنفيذ فى ترتيب أعماله، وتولاه أيضا فى أوائل خطته، ولكنه قد وكل إلى نفسه فى الأمور التى يعلمها الشاهد ولا يعلمها الغائب. ومنها موعد المسير وطريقة الهجوم واللقاء. فقام بما وكل إليه جميعا على أكمل الوجوه وأقمنا^(١) بموافقة الخليفة، إلا فى موضعين لكل منهما ارتباط بمسألة زواج: أحدهما فى البطاح والآخر فى اليمامة. فقد تعرض فيهما لمؤاخذه الخليفة ومؤاخذه كبار الصحابة، ولم يرض فيهما عرف الجاهلية أو عرف الإسلام.

وظاهر من مقال الخليفة فى ذى القصة أنه لم يكن على يقين من عداء بنى تميم، أو من ضرورة القتال فى أرضهم، وإنما كان يعلق الأمر على موقفهم عند وصل جيش المسلمين إليهم. وبخاصة بعد وفود زعماء منهم بإعلان الطاعة وإيتاء الزكاة؟

وليس أدل من هذا على أن الصديق رضى الله عنه قد كان يعمل عمله فى حروب الردة جميعا وهو على استطلاع وثيق وعلم واف بأحوال كل طائفة من المرتدين، وأن من دواعى انتصاره وفاء أخباره بحاجات القتال ونقص أخبار المسلمين عند القبائل المرتدة بعيدا وقربها على السواء.

فتقديره لموقف بنى أسد منذ البداية كان أصح تقدير.

وكذلك كان تقديره لموقف بنى حنيفة فى اليمامة..

ومثل هذين فى صحة الإلمام بالأحوال المختلفة شكه فى ضرورة القتال

(١) أتمنها: أحقها وأجدرها.

بالبطاح، وتعليقه القتال مع مالك بن نويرة على شرط، وتخصيصه مالكا بالذكر دون الآخرين من زعماء بيوت بني تميم فالواقع فى أمر بنى تميم كما نعلمه اليوم أنهم لم ينطوا على خطر جسام^(١) وإن اختلفت فى نياتهم الظنون.

وتاريخهم قبل الإسلام بعشرات السنين يؤكد هذه الحقيقة، ويوحى إلى الخليفة رأيه الذى ارتآه.

كانوا فى أجهل أيام فى طليعة العرب كثرة ومنعة وسعة بلاء ووفرة ماء ومرعى.

وكانوا يجترئون على المغامرات التى تفرق^(٢) منها القبائل الأخرى، فبطشوا مرة بقافلة عظيمة من قوافل الفرس التى تسير فى رعاية الدولة الفارسية وحراسة أناس من بنى حنيفة. وفارس دولة ضخمة يهابها العرب، وبنو حنيفة قوم من المنعة والعزة بكان. فلما استشار كسرى بعض زعماء بنى حنيفة فى عقوبتهم قال له: "إن أرضهم لا تطيقها أساورتك^(٣) وهم يمتنعون بها ولكن أحبس عنهم الميرة، فإذا فعلت بهم ذلك أرسلت معى جند من أساورتك، فأقيم لهم السوق، فإنهم يأتونها فتصيبهم عند ذلك خيلك".

وكذلك لم يتمكن منهم كسرى حتى منع عنهم حاجياتهم من أرض الحضارة فى سنة مجدبة. واستعان عليهم بمن يستدرجهم إلى مكان ينالون فيه..

ولكن بنى تميم على هذا كانوا مثلا من الأمثلة النادرة على عجائب الحظوظ فى هذه الدنيا، فقلما ظهر للمعتبرين أن الكثرة والسعة والمنعة والوفرة تنقلب أحيانا إلى نقمة تشبه القلة والضعف والخف كما ظهر ذلك فى شأن بنى تميم.

(١) جسام (بضم الجيم): جسم.

(٢) تفرق: تخاف.

(٣) الأساورة: جمع أسوار وهو الفارس والقائد فى جيش الفرس.

فقد كانت كثرتهم وسعة بلادهم واكتفاء كل بلد منها بمراعيه وأمواحه^(١) سببا لتفرقهم وتصدع وحدتهم وتعذر الإجماع بينهم على رئيس واحد. فتشبعوا بطونا يدين كل بطن منها لرئيس، بل بيوتا في البطن الواحد يبلغ من تنافسهم أن يتحاربوا ويتوارثوا التراث، ويصبح التوفيق بينهم أعسر من التوفيق بين أحدهم الغريب الطارئ عليهم من الأعداء والأصدقاء..

وكان هذا شأنهم يوم ظهرت الدعوة المحمدية، فلما بلغتهم خاف كل منهم أن يرفضها فيكون منافسوه الواقفون له بالمرصاد حربًا عليه. فأجاب رؤساؤهم الدعوة، وأقرهم النبي على رئاستهم، ومنهم الزبرقان بن بدر على الرباب، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون، ووكيع بن مالك على بنى حنظلة، ومالك بن نويرة على بنى يربوع وهم بيت من بيوت بنى حنظلة الكبار.

وكل أولئك رجال من ذوى رأى الراجح والقول النافذ والمناقب الشخصية". . ويمتاز من بينهم مالك بن نويرة بمزايا أخرى لم تتفق لواحد منهم، وهى اللباقة والظرف والفصاحة وحسن المحاضرة، مع الوسامة والصباحة وأناقة الزى والشارة، وهى فى جملتها تلك الصفات التى ترشح صاحبها لمآسى البطولة فى قصص الحياة، من واقع أو خيال.

كانت فيه خيلاء وجفلة^(٢)، وكان متلافا لا يبقى على مال، وكان فارسا شاعرا محدثا ظريف المدخل على من يعرف ولا يعرف، ومن ذاك أنه كان يقصد الحى من أحياء الأعداء وله فيه أسرى يريد فكاهم بالفدية المصطلح عليها، فلا يحدث أهل الحى هتية حتى يخلبهم بحديثه، ويأسرهم بظرفه وحسن سمته^(٣) فيردوا إليه أسيره بغير ندية، ويفترقوا وهم أصفياء..

(١) الأسواه: جمع ماء، ويجمع كذلك على (مياه).

(٢) جفلة: من قلوهم (جفل) إذا شرد ونفر، وفى ذلك عجرفة وتكبر.

(٣) سمته: هيته.

وكان مالك هذا أول من قصدت إليه سجاح المتبته عند منحدرها^(١) من الجزيرة. فصرفها عنه بلباقة إلى ملاقاتة البطون الأخرى من بنى تميم. ولعله زين لها أن تجمعهم إليها غضبه واحدة، لعلمه باستعصاء ذلك عليها وعلى غيرها. . وأنها وشيكة أن تنتقم له منهم إن هي دعوتهم إلى الالتفات بها فلم يجيبوها. ولم تزل الأنباء - قبل مقدم سجاح وبعد منصرفها^(٢) - يتابع بعضها بعضا بإنكسار المرتدين وغلبة المسلمين عليهم. إلا ما كان من هزيمة عكرمة في اليمامة وانتصار بنى حنيفة عليه، وهو انتصار لا يسر بنى تميم لشدة المنافسة بينهم وبين بنى حنيفة.

فلما أخذ الخليفة في عقد الألوية وتسيير البعوث كان بنو تميم على حالهم المعهود من التفرق والمراقبة بعضهم لبعض على توجس وحذر، فسبق بعضهم إلى المدينة بحصته من الزكاة، وتأخر بعضهم حتى نزل خالد بأرضهم فدفعوها إليه، وتحير مالك بن نويرة فلم يعزم على الحرب ولم يؤد الزكاة.

وأغلب الظن أنه بدد ما جمع من الصدقات في هباته وملاهيته، ثم ليم في ذلك فأجاب لائمه بأبيات قال فيها:

وقلت خذوا أموالكم غير حائف ولا ناظر فيما يجئ من العد
فإن قام بالأمر المخوف قائم منعنا وقلنا الدين دين محمد
يعنى أن محمدا هو صاحب الدين وصاحب الزكاة، وقد مضى محمد
فليس لأحد بعده أن يتقاضاه.

وهو على الجملة موقف رجل مسرف " لا يبالي ما يجئ من الغد " كما قال: وليس بموقف عناد وتحفز لقتال.

فلما نزل خالد بالبطاح لم يجد أمامه أحدا يلقاه بزكاة أو يلقاه بقتال. فعسكر حيث نزل وأرسل السرايا في أثر أهل البطاح، فجاءته بمالك بن نويرة

(١) منحدرها: انحدرها (مصدر ميمي). (٢) منصرفها: انصرفها (مصدر ميمي).

فى نفر من بنى يربوع . فحسبهم ثم أمر بقتلهم ، وحدث بعد ذلك أنه تزوج بامرأة لىلى أم تميم ، وكانت من أشهر نساء العرب بالجمال ، ولاسيما جمال العينين والساقين . يقال إنه لم ير أجمل من عينيها ولا ساقها .

وتضطرب الروايات هنا أبعد اضطراب وأصعبه أن تهتدى منه إلى مخرج متفق عليه .

فمن قائل إن السرايا وجدت بنى يربوع يصلون وسمعت الأذان ، ومن قائل : لم نر صلاة ولم نسمع بأذان .

ومن قائل إن الأسرى قتلوا لأن الليلة كانت باردة ونادى مناد من قبل خالد " أن دافئوا أسراكم " ففهم الحراس أنه يريد القتل لأنهم من بنى كنانة والمدافأة بلهجتهم كناية عنه .

ومن قائل إن مالكا قتل بعد محادثة حامية جرت بينه وبين خالد . ثم اضطرب الروايات فى نقل حديثهما فلا يدرى له نص صحيح . فقيل إن مالكا صرح بأنه لا يعطى الزكاة وإنما يقيم الصلاة . فقال خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معا ، لا تقبل واحدة دون الأخرى ؟ فقال مالك : قد كان صاحبك^(١) يقول ذلك . فأخذ خالد قوله دليلا على تبرئه من النبى وقال له : أو ما تراه صاحبيا ؟ . ثم حمى الجدل بينهما حتى أمر بقتله . . ونسجت الخرافة بعد ذلك نسيجها الذى لا يتماسك لوهيه^(٢) . فرعموا أن خالد أمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرا فأكل منه ، وأن شعر مالك جعلت النار تعمل فيه إلى أن نضج اللحم ولم يفرغ الشعرا وهى خرافة تروى لتدلنا على شىء واحد : وهو وجود المحققين الراجحين فى التشهير بخالد وتبشيع أعماله وإيغار الصدور عليه .

(١) بقصد بقوله (صاحبك) النبى ﷺ . (٢) لوهيه : الوهى : الضعف .

وقيل إن مالكا لمح في عيني خالد الإعجاب بامرأته فصاح به: هذه التي قتلتنى. فقال له خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام.

ويذهب بعضهم إلى أكثر من هذا فيزعمون أن هوى خالد لها: سابق لحرب الردة، وفي ذلك يقول أن ثمير السعدى:

قضى خالد بغياً عليه بعمره وكان له فيها هوى قبل ذلك^(١)

وقيل إن خالدًا توعد مالكا بالقتل فقال له مالك: أو بذلك أمرك صاحبك؟ قال خالد: وهذه بعد تلك؟ ثم تكلم أبو قتادة الأنصارى وعبد الله بن عمر في أمره فكره خالد كلاهما. وعاد مالك يقول له: يا خالد: ابعثنا إلى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا. فقال خالد: لا أقالنى الله إن أقتلك^(٢). وتقدم إلى ضرار بن الأزور أن يضرب عنقه. ويزيدون على ذلك أن خالدًا دعا أبا قتادة الأنصارى وعبد الله بن عمر إلى حضور عقد الزواج بليلى بعد مقتل زوجها، فأبيا وأشارا عليه أن يكتب إلى أبى كبر، فلم يستمع إليهما.

وغضب أبو قتادة فأقسم لا يجمعه بعد اليوم وخالدًا لواء واحد، وقفل إلى المدينة غير مستأذن من قائده، فلقي الخليفة ولقى عمر بن الخطاب، فكانت غضبة عمر أشد وأعنف. وطلب إلى الخليفة أن يعزله وأن يقيد^(٣) قائلاً: إن سيفه فيه رهق^(٤) فلم يجبه الخليفة وقال له: يا عمر، تأول فأخطأ^(٥). أرفع لسانك عن خالد، فإنى لا أشيم^(٦) سيفاً سله الله على الكافرين.

(١) العرس: (بكسر العين): الزوج، رجلاً أو امرأة.

(٢) لا أقالنى الله أن أقتلك، لا صفح الله عنى أن أنا صفحت عنك.

(٣) بقيدته: يقتله قصاصاً. (٤) رفق: سقه وطغيان.

(٥) تأول فأخطأ: حاول أن يتفهم الأمر وبغيره ويقسره فأخطأ.

(٦) يشيم السيف: يغمده.

ولكنه ودى مالكا واستدعى خالدا إليه، فلما قدم إلى المدينة رأى عمر منه ما زاده غضبا وشدة في طلب القود منه. رآه قد دخل المسجد وعليه قباء^(١) وقد غرز في عمامته أستهما. فنهض إليه فترعها وحطمها وصاح به: "قتلت امرأة مسلما ثم تزوت على امرأتيه، والله لأرجمنك بأحجارك" ..

فتركه خالد ولقى الخليفة فاعتذر إليه. فعنفه الخليفة وأمره أن يفارق ليلي، ثم عفا عنه واستبقى خدمته. فعاد خالد إلى المسجد وفيه عمر. . فبادره حين رآه مناجزا: هلم إلى يا ابن أم شملة^(٢) .. فعرف عمر أن الخليفة قد عفا عنه. فلم يكلمته ودخل بيته.

وحسنا من هذه الأقوال جميعا أن نقف منها على الثابت الذي لا نزاع فيه. والثابت الذي لا نزاع فيه أن وجوب القتل لم يكن صريحا قاطعا في أمر مالك بن نويرة، وأن مالكا كان أحق بإرساله إلى الخليفة بين زعماء فزارة وغيرهم الذين أرسلهم خالد بعد وقعة البزاحة، وأن خالدا تزوج امرأة مالك وتعلق بها وأخذها معه إلى اليمامة بعد لقاء الخليفة ..

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت هذا كله أن نقول: إن وقعة البطاح صفحة في تاريخ خالد كان خيرا له وأجمل لو أنها حدقت ولم تكتب على قول من جميع تلك الأقوال، لأنها لم تصف إلى فخاره العسكري كثيرا ولا قليلا، وأهدفته^(٣) لمام أحمد ما يحمد منه أن له عذرا فيه، يقبله أناس ولا يقبله آخرون.

يجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق الذي لا يعلو على ميزانه ميزان في ترجيح الرجال والأعمال.

ولأن الرجل الذي يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق

(١) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص.

(٢) الشملة: كساء عن صوف أو شعر يتلف له. (٣) أهدفته: عرضته.

أن يكتب له تاريخ . إذ معنى الخشية عليه من أخطائه أنه فقير في الحسنات والعظائم، وأنه من الفقر في هذا الجانب بحيث تعصف الأخطاء بعظمائه وحسناته . ولم يكن خالد بن الوليد كذلك، بل كانت له في ميزان العظمة والعبقرية كفة راجحة، ولم يكد يرحل عن البطاح حتى اتصلت له حلقات من كبار الأعمال توزع على عشرة رجال ويجد كل منهم في نصيبه كفايته من الفضل والرحجان .

خرج من البطاح إلى اليمامة

خرج من وقعة لأخطر لها إلى وقعة لها الخطر الأكبر في حروب الردة وفي حروب الإسلام كافة خلال أيام الخلفاء الراشدين ويرجع هذا الخطر إلى قوة بني حنيفة أصحاب اليمامة، ودهاء رئيسهم مسيلمة بن تمامة، ومنعة بلادهم بالجبال والأودية ووفرة المال والثمرات .

هابها أصحاب سجاح وقالوا لها حين حدثتهم بغزوها: إن مسيلمة قد استفحل أمره وعظم . . فلم تهون عليهم خطبا حتى استنزلت لهم سجاجات من وحيها المزعوم تقول فيها: " عليكم باليمامة . دفوا دفيف^(١) الحمامة، فإنها غزوة صرامة^(٢) ولا تلحقكم بعدها ملامة: " .

وكان مسيلمة هذا رجلا قصيرا أخنس الأنف أفطسه^(٣) شديد الصفرة زرى الهيئة، ولكنه على ما يؤخذ من أخباره كان على ذكاء منفرط وحيلة نافذة، وكان من أولئك الدهاة الذين يعوضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء، فاشتهر بالخلافة^(٤) والقدرة على استهواء النفوس من الرجال

(١) دنوا دفيف الحمامة: يقال (دفا الطائر دفيفا) إذا ضرب جنبيه بجناحيه، أو حرك جناحيه وهو واقف على الأرض . (٢) صرامة: قاطعة حاسمة .

(٣) أخنس أفطس: الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة، والفطس: انخفاض قصبه الأنف .

(٤) الخلافة: (بكسر الحاء) من خلبه إذا خدعه وفتن قلبه .

والنساء، فمن خلابته أن النبي عليه السلام أرسل غليه رجلا من قراء القرآن ليعلم أهل اليمامة أحكام الإسلام ويبصرهم بالفرائض والعبادات وهو نهار الرحال^(١). فما لبث الخبيث أن استغواه حتى شهد له أنه يوحى إليه، وأنه سمع النبي عليه السلام يقول إنه قد أشركه معه وشهد له بالنبوة.. وقد استغوى سجاح - وهي تدعى النبوة - حتى شهدت بنبوته وتزوجه، وانصرفت من بلاده بنصيب من الهدايا يقنعها بالذهاب ولا يضمن لها التكرار. وكأنه كان على حظوة عند النساء وخبرة بأهوائهن وأساليب مرضاتهن. فقد كان نساؤه يجبنه ويجزغن عليه، وصاحت إحداهن ساعة أن قتله وحشى بن حرب مولى جبير بن مطعم: "وا أمير الوضاعة"^(٢). قتله العبد الأسود... "

خليق بهذا أن يظن به السحر وتنتظر منه الخوارق بين الجهلاء. لأنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مآتاه. فيخيل إليهم أنه سر من الغيب، أو معونة من الجنة والشياطين، وهو على هذا كان يعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة والألعايب التي كان يحذقها لعض الكهان في بلاد العرب والعجم، فكان قبل دعائه النبوة يطوف بالأسواق ويتعلم "النيرنجيان"^(٣) حيث سمع بأساتذتها المبرزين فيها. ولم يكن في طبيعة بمعزل عن طبائع السحرة وأدعياء الغيب. فقد قيل في وصفه وهو ينكهن: "إنه إذا اعتراه شيطانه أزيد حتى يخرج الزبد من شذقيه"... والأغلب الأرجح أنه به صرعا كأولئك الذين

(١) الرحال: في تاريخ الطبرى (الرجال) بالجيم لا بالحاء. وذكر أنه الرجال ابن عتفة بن نهشل.

(٢) الوضاعة: الحسن والجمال والنظافة.

(٣) النيرنجيات: النيرنج: عمل يبدو كالسحر، وليس سحرا، وذكر أين قتيبة في كتاب (المعرف) أن مسلمة كان صاحب نيرنجيات، وهو أول من أدخل قتيبة في كتاب (المعارف) أن مسلمة كان صاحب نيرنجيات، وهو أول من أدخل البيضة في فارورة، وأول من وصل جناح المقصوص من الطير.

يشبهونه فى الخلاق والدعاوى، ومنهم الذين يعالجون^(١) "الاستهواء" من المستهوين أو الوسطاء^(٢).

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ووثقوا به وأطاعوه. فتأتى له أن يجمع منهم أربعين ألف أو ستين. وهو عدد ربما ارتفعت به المبالغة أو بالجهل بالتقدير، ولكنه لا يهبط إلى ما دون العشرين قياسا على ما وصفت به معركة اليمامة من الهول وكثرة القتلى والجرحى بين الفريقين.

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمر كثيرة يوم تصدى لدعوة النبوة ومقاومة الإسلام. فكان يقاتل ثمامة بن أثال ويناوش بنى تميم لما بينهم من الذحول^(٣) والمنافسات، ويتوقى شر سجاح وقومها التغليبين، ودولة الأكاصرة من وراء التغليبين ويعلم أن أشياعه من بيوت بنى تميم قد يخلونه، وأن الذين دانوا الإسلام بين قومه عيون عليه، وأن الخليفة لا يمهل ولا يجهل أخباره. فتحيل على مهادنة خصومة، وفرغ جهده لحرب المسلمين وحدهم، وحشد كل ما وسعه من جند وسلاح، تقدم بهم فى عجلة إلى موقع يقال له عقرباء فى طرف بلاد على مقربة من بلاد بنى تميم.

ولم يكن يجهل خطر الرجل الذى سيلقاه، ولم يكن يخفى عليه أن الحروب فى الرعاء غير الحرب فى بلاد تكتنفها الجبال وتقام فيها الأبنية والأسوار، فتوجه إلى اليمامة فى أهبة كافية بالقياس إلى أهبة المسلمين لأعدائهم فى صدر الإسلام.

ولا يعلم على التحقيق عدد الجيش الذى كان معه فى عقرباء، ولكنه

(١) يعالجون: يمارسون.

(٢) الاستهواء: معناه فى اللغة التأثير فى المرء حتى يتقبل رأى دون أن يقوم دليل يقينى على صحته، قال تعالى "كالذى استهوته الشياطين" ويمارس اليوم باسم (الايحاء) أو (التنويم المغناطيسى) عن طريق الوسطاء.

(٣) الذحول: جمع دخل وهو الثار.

على التقريب يجاوز الثمانية الآلاف ولا يقل عنها . لأن جيشه بالبزاخة نحو خمسة آلاف، يضاف إليهم جيش شرحبيل ابن حسنة الذى سبقه ولبث فى انتظاره، ولا يقل عن ألفين، ويضاف إليهم الردء الذى^(١) أرسله الصديق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ليحمى ساقتهم^(٢)، وغير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بنى تميم وبنى حنيفة، فهم فى جملتهم يجاوزون الثمانية الآلاف ولا ينقصون عنها، إن نقصوا، إلا بقليل . .

لكن مكان القوة من هذا الجيش الصغير إنما هو كثرة الصناديد من أبطال الصحابة المشهورين فيه . فقد كان جيش المسلمين لا يجاوز فى عدته نصف جيش اليمامة، ولكنه كان فى عدة وافية من أفذاذ الرجال الذين يقسمون بالألوف . . فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كفؤان متناظران

وكانا كفؤين متناظرين فى صدق النية واتقاء العار من الهزيمة . هذا تأخذه غيرة الحرم^(٣) وهذا تأخذه غيرة الدين . وقد قال ابن مسيلمة لقومه وهم يتقدمون إلى المسلمين: هذا يوم الغيرة . اليوم إن هزمتم تستكح النساء سيئات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم امنعوا نساءكم^(٤) .

فليست ثغور الخصمين حرارة الخصومة، ولا شواحد^(٥) الغيرة، ولا صلابة العزم، ولا توسم الأمل فى النجاح .

ولم يزل خالد يتقدم إلى وجهته على تعبئة كاملة كعادته معظم

(١) الردء: العون، ويراد له به هنا المدد الذى أرسله للمعونة .

(٢) ساقتهم: مؤرختهم .

(٣) الحرم: جمع حرمة وهى المرأة، وحرم الرجل: أهله .

(٤) فى رواية "تستردف" بدلا من "تستكح" فى أخرى "تستحقب" وفى بعض الروايات "خطيبات" أو "رضيات" بدلا من "حظيات" والمعنى العام للعبارة واحد، وهو الغيرة على النساء أن تستباح أعراضهن .

(٥) شواحد الغيرة أى ما يشحدها ويؤيدها حدة (من شحذ السكين) .

غزواته . . وكان يتلقى الأخبار عن مسيلمة وحركاته فى كل مرحلة من مراحل الطريق . ولعله استعظم القوة التى حشدها مسيلمة فى عقر داره فجنىح إلى الأخذ بالأحوط ، وكتب الخليفة فى طلب المدد عسى أن يحتاج إليه بعد الجولة الأولى جولات القتال ، فأمدته الخليفة بجرير بن عبد الله البجلي ولكنه التحم بجيوش مسيلمة قبل أن يصل إليه ، فليقه منصرف من الإمامة .

ولما دنا من أرض مسيلمة مرت مقدمة جيشه فى الليل بكوكب من الفرسان بين الأربعين والستين . . عليهم مجاعة بن مرارة من زعماء نبي حنيفة وأصحاب الرأى والمنزلة فيهم ، وكأنه كان خارجا لاستطلاع أمر المسلمين ، ولكنه أنكر ذلك وزعم أنه ذهب " لأخذ ثأر له فى بنى عامر " . فلما سئلوا عن دينهم واستبقى مجاعة عسى أن ينتفع بمنزلته فى قومه أو بعلمه بالحرب والمكيدة كما قال لبعض الرواة

ونزل خالد على كثيب^(١) فى مواجهة مسيلمة . ثم التحم الفريقان ، " وقاتلت بنو حنيفة قتالا يعهد مثله " ، واندفعت فى هجمتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكر وفيها امرأته أم تميم ومجاعة بن مرارة مقيد بالأغلال^(٢) . . فهم بعض الحنيفين بقتلها لولا أن حماها منهم مجاعة وأوصاهم بها خيراً وهو يقول: نعمت الحررة هذه . وعليكم بالرجال .

شاهد فى كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم فى الصدر الأول أن الكرة الأولى غالباً ما تكون للمشركين ، ولاسيما حين تجتمع لهم مزية العدد والراحة حيث يختارون مكان القتال ، وهى مشاهدة لا تستغرب ولا تخالف المعهود . لأن " الدفعة الحيوانية " أبدأ لها الوثبة الأولى مع العدد الكثير وراحة الجسد . وإنما الثبات للعقيدة التى يلوذ بها الإنسان بعد المراجعة ، وللضمير الذى يشوب إليه المرء بعد الامتحان . وليس من شأن العقيدة أن تكون -

(١) كثيب: الكثيب من الرمل: المجتمع . (٢) الأغلال: القيود .

كالدفعة الحيوانية - وثبة عاجلة وهجمة سواره^(١) فاشلة. وإنما شأنها أن تحاسب النفس وتستعيد قواها وتستخرج ذخيرتها من أعماقها. فهي لهذا تنفع صاحبها في المحنة وبعد تبين الشدة. وبخاصة حين يحتاج إليها بعد الجولة الأولى.

وهذا الذى حدث فى عقرباء كما حدث فى وقائع شتى.

فبعد الجولة الأولى التى فازت بها "الدفعة الحيوانية" برزت العقيدة إلى الطليعة وجاءت بمعجزاتها، وهى معجزات لا يتخيل العقل أن نفسا إنسانية تقدم عليها بغير اعتقاد.

انكشف الأعراب أولا فى أول صدمة، وتزلزلت أقدام الناس من الأنصار والمهاجرين من طغيان الجموع الهازمة على السواء فبادر خالد إلى تنظيم جيشه على وضع جديد. فميز المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب كل بنى أب على راية. وصاح بهم أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين تؤتى^(٢).

ثم عول على الموت كما وصاه أبو بكر فوهبت له الخيلة ووهب النصر^(٣). حمل على القوم حتى تجاوز الصفوف وجعل يخاطب مسيلمة ويعرض عليه النصف^(٤) والرجوع إلى الحق، ومسيلمة يروغ منه. ثم نادى بشعار المسلمين: يا محمد.. ودعا إلى المبارزة وهو يصول ذات اليمين وذات الشمال ولا من يثبت له فى مجال، ولم يبال أن ينظر إلى ما رواءه لأنه ترك كل شىء فى تلك الساعة إلا أن يتقدم أمامه. ولم يزد على أنقال لجيرته أو

(١) سواره: غاضبة محتدمة.

(٢) من أين تؤتى: من ناحية من أى جهة يتمكن العدو منا إذا قدر له ذلك.

(٣) يشير إلى قول أبى بكر "أحرص على الموت توهب لك الحياة".

(٤) النصف: (بكسر النون المشددة): الإنصاف.

من نسيمهم اليوم أركان حربه: " لا أوتين من خلفي " ومضى إلى تقدم بغير رجوع، إلا رجوع ظافر مختار.

وظهرت في مقام الهول فضيلة الصناديد من كبار الصحابة فحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو يحمل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن^(١). فلم يزل ثابتا حتى قتل في مكانه.

وصاح زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم، وامضوا قدما. ثم أقسم: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتي، فكانت آخر ما فاه به في ذلك اليوم

وحمى البراء بن معرور وأخذته العرواء^(٢) التي كانت تأخذه حين تتعالى الوغى^(٣) ويحتمد القتال. فكان كأنما يبحث عن الموت ويهرب من الحياة.

وتجاوبت الساحة بأصوات الأبطال يوصى بعضهم بعضا، وينظر بعضهم إلى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون بينهم: يا أصحاب سورة البقرة.. يا أنصار الله.. كما ناداهم النبي عليه السلام في يوم حنين. فاستحى كل منادى منظور المكان منهم في ذلك المشهد العظيم أن ينكص على عقبيه، ولم ير منهم إلا قتيل في موضعه، أو زاحف إلى الأمام.

وما هي إلا سويغات حتى انكشف أصحاب مسيلمة منكسرين، وهروا مسيلمة نفسه إلى حديقة مسورة من ورائه. وقد سميت في ذلك اليوم بحديقة الموت لكثرة من قتل في طريقها وكثرة من قتل فيها. ولاحت من البراءة نظرة

(١) تحنط وتكفن: استعد للموت بوضع الخنوط (أو الخنوط) وهو ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم من مسك وغيره، وتدثر بالكفن.

(٢) العرواء: أول ما يمس المريض من برد الحمى.

(٣) الوغى: الجلبة والأصوات، ومنه سميت الحرب (الوغى) لما فيها من الصوت والجلبة.

إلى جانب الباب فإذا هم قد أوشكوا أن يغلقوه عليهم . فصاح بإخوانه يا معشر المسلمين: ألقوني عليهم من فوق سورها . فاحتملوه فوق الحجف (١) ورفعوها بالرماح حتى بلغت أعلى السور فسقط منه على القوم بعد تردد، ولم يزل يعالج باب الحديث حتى فتحه ، وقد تائب أفراد من المسلمين إلى جانبه فأعانوه .

وقتل في هذه الهجمة مسيلمة كما قتل محكم بن الطفيل أكبر أعوانه ومشيريه ، فاضطرب بنو حنيفة ووقعوا في الحيرة وهم في هزيمة يشار فيها برأى ولا يصغى فيها إلى مشير فشغلوا عن باب الحديث وأعين المسلمون على اقتحامهم من داخلها وخارجها ، فحق لتلك الحديثة في ذلك اليوم أن تسمى حديقة الموت ، لأنها اشتملت في يومها على ألوف من القتلى ، وبلغ عدد القتلى جميعا في ذلك اليوم بين ساحة القتال وحديقة الموت عشرات الألوف ، أقلهم في تقدير المقدرين عشرة آلاف من بنى حنيفة وستمائة من المسلمين ، وأكثرهم في تقدير المقدرين يرتفعون إلى سبعين ألفا أو ثمانين حنيفين وألفين مسلمين ، وهو رقم لا يدل على نبأ صحيح ، ولكنه يدل على هول صحيح سرى في الآفاق من أبناء تلك المعركة التي ذهبت فيها نخبة من أجل الصحابة وأفقها الفقهاء ، ومن جراء مقتلهم في هذه المعركة أمر الخلفاء يجمع القرآن في المصحف بعد أن فنى الكثيرون من حافظيه ، وخيف أن يقنى آخرون .

ثم بعث خالد الحيوول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبى ، وعزم على غزو حصونها جميعا ولم يكن بقى فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ والكبار ، فاقترح عليه مجاعة أن يذهب إليهم لينزلهم لهم صلحا عن معاقلهم . ثم خدعه وأخلص لقومه ، لأنه أمر النساء والكبار أن يلبسوا الحديد ويبرزوا من رءوس الحصون ، فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من

(١) التروس من جلد بلا خشب .

رعوس الناس . فأثر المصالحة لما رأى بالمسلمين من الجهد^(١) " وقد كلوا من كثرة الحروب " واشترط أن يسلموا وأن يكون له نصف السبى والغنائم ، ثم نزل من النصف إلى الربع حين أوهمه مجاعة أن القوم قد رفضوا ما قبل منه فلما اطمأن المعتصمون إلى الحصون من بنى حنيقة فتحوا أبوابها فلم ير فيها إلا امرأة أو صبى أو شيخ فإن أو رجل هزيل لا يرجى لقتال .

وقد يتوقع من خالد أن يغضب على مجاعة ويبطش به بطشة خالدية بعد هذه الخدعة التي اجترأ عليه بها علانية وهو في قبضة يديه .

لكننا في الحق لا نعجب إذا هو لم يغضب . لأن عمل مجاعة لا مرء عمل نبيل يكبره في النفوس النبيلة ، ويبعث له فيها الإعجاب الذي يكفكف من شرة كل^(٢) غضب سريع . فهو عمل ينضح بالمروءة والغيرة على العشيرة ، وكتاهما فضيلة يعرفها خالد ويعرف للمتصف بها قدره فلا يذله ولا يجزيه شر الجزاء .

وقصارى ما بلغ من غضبه أنه نظر إليه نظرة شزراء^(٣) وصرخ به : ويحك . . خدعتنى . فلم يجبن مجاعة ولم يعتذر ، وإنما قال : هم قومى !

وما نحسب إلا أن الإعجاب بمجاعة قد حجب إلى خالد أن يصهر إليه ويوثق الصلة بينه وبين : زعيم شجاع جميل رأى حسن التدبير غيور على قومه عليم كان وصفوه بمكيدة الحرب والسلام . فهو خير صهر فى تلك القبيلة التى يفخر " سيف الله " بدخولها على يديه فى الإسلام ، ويطيب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب . وقد طاب له المقام بتلك البقاع المخصبة التى

(١) الجهد: (بفتح الجيم) المشقة .

(٢) الشرة: (بكسر الشين وتشديد الراء المفتوحة) الحدة ، يقال (أموال بالله من شرة الغضب) .

(٣) النظرة الشزراء: تكون بمؤخر العين ، وذلك فى حال الأعراض أو الغضب .

يزينها له النصر كما يزينها طيبب الهواء . فاختار له واديا من أوديتها الجميلة يسمى الوبر ليقوم فيه حتى يؤمر بوجهة أخرى، وخطب إلى مجاعة فتاة له موصوفة بجمالها، وهى خطبة لا ترفض ولكنها قد تقبل وتؤجل . لأن مجاعة قد علم من " ليلي " مذ كان سجيناً فى خيمتها كيف تلقى الخليفة وأصحابه خبر زواجها بخالد فى ساحة القتال، فأشفق هذا الرجل المحنك البصير بالعواقب من عاقبة تسوؤه وتسوء ابنته وتسوء خالداً فى جريته^(١) . فاستمهله ولم يعجل بتلبية طلبه، وقال له: " مهلاً . . . إنك قاطع ظهري وظهرك معى عند صاحبك " . . . ولكنه لم يلبث أن علم إصرار خالد حتى أجابه ورأى أن عاقبة القبول أسلم من عاقبة الإباء .

وكان خالد قد تلقى من الخليفة أمراً باستئصال كل من يحمل السلاح من بنى حنيفة، فعادت الرسل إلى الخليفة بخبر الصلح وخبر الزواج، فحسب أن الأمرين مقترنان، واشتد به السخط على عمل خالد بما وقع فى نفسه من حسابان، فكتب إليه أعنف خطاب وجهه إلى قائد من قواده، أو وال من ولاته، وسماه ابن أم خالد . . . " وقال له فى خطابه: إنك لفارغ . وتعى عليه^(٢) أنه " ينكح النساء ويفناء بيته دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجفف بعد " .

وقد كتب خالد إلى الخليفة يعتذر فى أنفة وعزة: " أما بعد: فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لى السرور وقرت بى الدار^(٣)، وما تزوجت إلا إلى امرئ لو عمدت إليه من المدينة خاطباً لم أبل^(٤) . دع أنى استثرت خطبتى إليه من تحت قدمى، فان كنت قد كرهت لى ذلك لدين أو ديناً أعتبك^(٥)، وأما

(١) الجريرة: الذنب . (٢) نعى عليه: عابه وشهر به .

(٣) قرت بى الدار: استقرت واطمأنت .

(٤) لم أبل: أو إبل: لم أبال وحذف الألف تخفيفاً لكثرة الاستعمال (قرب الموارد الجزء الأول ص ٦١) .

(٥) أعتيتك: أرضيتك، وفعلت ما يسرك بعد أن فعلت ما ساءت .

حسن عزائى على قتلى المسلمين فو الله لو كان الحزن يبقى حيا أو يرد ميتا لأبقى حزنى ورد الميت، ولقد اقتحمت فى طلب الشهادة حتى يثت من الحياة وأيقنت بالموت. وأما خدعة مجاعة إياى عن رأى فإنى لم أخطئ رأى يومى، ولم يكن لى علم بالغيب، وقد صنع الله للمسلمين خيرا، وأرثهم الأرض^(١) وجعل لهم عاقبة المتقين.

وقال فى رسالة أخرى: "إنى لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به، وحتى عجف الكراع^(٢) ونهك الخف^(٣) ونهك المسلمون بالقتل والجراح".

وقد ظن خالد أن الخليفة لم يكن ساخطا عليه ذلك السخط لولا إصغاؤه "للأعيسر" كما كان يسمى عمر بن الخطاب ويخيل إلينا أن سخط الخليفة لم يكن ليبلغ به هذا المبلغ لولا أن زواجه بنت مجاعة سبقه ذلك الزواج الذى خبطت فيه الظنون بعد مقتل مالك بن نويرة.

وعلى هذا انقضى واجب خالد بن الوليد فى حروب الردة كأحسن ما ينقضى هذا الواجب، وقام وحده بأوفر سهم فى هذه الحروب لأنه قمع أخطر الفتن فى الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها. فقمع بنى أسد وحلفائهم، وخطرها أنها كانت أقرب الفتن إلى المدينة ومكة. وقمع بنى حنيفة، وخطرها أنها كانت فتنة القبيلة الأقوى، والعديد الأكثر بين العرب قاطبة. وحقق كل ما ندبه له الخليفة وكل ما اتفقنا عليه. سواء من الخطط التى نظر معا فى تفصيلاتها، أو من الخطط التى عرف خالد غاياتها وابتدع لها ما ارتآه من أساليبها فى أماكنها وأوقاتها. ولم يخالف رغبة الخليفة إلا فى موضعين لهما - كما أسلفنا - علاقة بمسألة زواج.

(١) أرثهم الأرض: جعلهم يرثونها، ويستولون عليها.

(٢) عجف الكراع: الكراع من البقر والغنم: مستدق الساق العادى من اللحم (ويسميه الكارع) والكراع أيضا اسم بجمع الخيل، وعجف، وعجف: عزل وضعف إلا نهك المخف: المخف للبعير كالحافر للفرس، ونهك: أصابه الضنى والانهاك.

أما الأولى - وهى زواج ليلى امرأة مالك - فقد تقدم تلخيصها،
وجملة الرأى فيه - كما أسلفنا - أنه عمل يخوج خالدًا إلى الاعتذار
والتفسير، وأنه صفحة كان خيرًا له لو طويت من تاريخه، فما فيها مزيد
افتخار، وفيها على أهون القولين مقام اعتذار.

وأما الأخرى فلا يسمع أحدًا أن يسهو فيها عن عجلة خالد الزواج على
غير القوم فى ميادين القتال.

ولكن لا يسع أحدًا كذلك أن يتعدى هذا إلى مظنة تمس نية الرجل، أو
تجعل صلحه لبنى حنيفة متصلًا برغبته فى الزواج ببنت مجاعة زعيم الحنفيين
فى صلح اليمامة.. ذلك بعيد، جد بعيد..

لأن بنت مجاعة كانت بين يديه، وكان فى وسعه أن يقتل أباهًا نعمة
من خداعه إياه، ومرضاه للخليفة الذى أمره باستئصال من يحمل السلاح فى
القبيلة، فهو يقتله ولا معتبة عليه^(١).

ولم يصلح خالد بنى حنيفة وهم مجمعون على قبول صلحه. بل كان
منهم زعيم له أنصار وأتباع - هو مسيلمة بن عمير^(٢) - أبى أن يذعن لشروط
مجاعة ومضى يهتف فى قومه: "يا بنى حنيفة. قاتلوا عن أحسابكم ولا
تصالحوا على شىء، فإن الحصن حصين والطعام كثير، وقد حضر الشتاء".

فلما عارضه مجاعة وذهب برأى الأكثرين من قومه تهادى مسيلمة بن
عمير فى لجاج الخصومة، وانسل إلى فسطاط^(٣) خالد يريد أن يفتك به ويشيع
بموته الفتنة التى لا تؤمن عقابيلها^(٤) فى معسكره ومعسكر بنى حنيفة، فتنبه
خالد إليه وسأل: من هذا المقبل؟.. فعرفوه به فقال: أخرجوه عنى. فلما

(١) معتبة: عتاب وملامة. (٢) فى الطبرى (سلمة ن عمير).

(٣) فسطاط: خيمة.

(٤) العقابيل: جمع عقبول، وهو الشديد من الأمور، والداهية.

أخرجوه وجدوه يخفى السيف فى ثيابه، فلعنوه وأوثقوه فى الحصن وأخذوا عليه عهداً لا يقربن بعدها من فسطاط خالد حتى تنتهى بيعة قومه على الإسلام. . ولكنه غدر بعهده وأفلت بالليل إلى معسكر خالد مصراً على قتله، فلما أدركوه دون بعيته أجال السيف على حلقه فقطع أوداجه^(١) وأثر الموت على التسليم.

ومع هذا بقيت بلدة "القرية" ووادى العرض فى اليمامة لم يشملها الصلح الذى شمل العسكر فى عقرباء. فلم تكن مطاولة^(٢) القوم خيراً من المصالحة فى حالة كتلك الحال، ولم يكن فى طاقة المسلمين أن ينهضوا للمطاولة بعد أن قتل منهم من قتل وجرح من جرح، ومضى على أكثرهم عدة شهور بين مشقة السفر ومشقة الهول والبلاء، ولم يكن إرجاء التسليم مأمون المغبة إذا استثيرت نخوة الحنفيين، وفيهم من يعاند فى الخصومة المغبة إذا استثيرت نخوة الحنفيين، وفيهم من يعاند من الخصومة ذلك العناد، ولقد يكون المستسلمون منهم أسرع إلى النكسة يوم يشهدون بأعينهم سبى النساء "غير حظيات"^(٣) وقتل القادرين على الحرب من فتية وكهول.

فداعى خالد إلى الصلح أظهر وأرجح من أن يعتسف^(٤) معها داع آخر غير معقول ولا مستساغ، وإن الداعى الذى لا يعقل ولا يستساغ هنا لهو التعليل بزواجه من فتاة اليمامة. وأيسر شئ لديه أن يسيبها بعد قتل ذويها، ثم يكون ذلك أدنى إلى رضا الخليفة وتحقيق ما أمر به، قبل أن يطلع على الموقف فى اليمامة من جملة نواحيه.

وبعد، فليحسب زواج خالد كله فى أى سجل يشاء أن يحسبه

(١) أوداجه: جمع ودج (يفتح الدال) وهو عرق فى العنق.

(٢) مطاولة القوم: المضى فى قتالهم ومحاربتهم.

(٣) غر حظيات: يشير إلى عبارة ابن مسيلمة (فى حروب الردة)، ويقال "حظيت.

(٤) يعتسف: يتكلف، ويتكلف.

الحاسبون، ففي سجل المفاخر الإسلامية شيء يحسب له بعد حرب اليمامة لن يطول فيه خلاف. . فتلك أول حرب ظهر فيها للمسلمين مصداق قول النبي عليه الصلاة والسلام إنه سيف من سيوف الله.

كان الخطر على الدين الجديد من العرب أنفسهم ومن أمم "الأعاجم" التي تحيط بالبلاد العربية.

وقد رأينا نصيب خالد من وقاية الإسلام في أرضه، وهو أوفى نصيب. وسنرى نصيبه من مراس^(١) الخطر الآخر وما هو بأكبر الخطرين، ولكن نصيب خالد في مراسه كان أوفى النصيبين.

(١) المراس: الجلد والقوة ومعاركة الأمور.